فى مديح الأدب*

"عرض كتاب"

محمود أحمد عبد الله

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاورات المنضبطة أجراها المفكر الإيطالي ريكاردو مازيو مع عالم الاجتماع البولندى زيجمونت باومان مؤخرا قبل وفاة الأخير. يدور الكتاب حول موضوعات عدة، بداية من توصيف حدود العلاقة بين علم الاجتماع والأدب، حيث طرح عددًا من الإشكالات التى يشهدها واقعنا الاجتماعى المعاصر. ورغم أن الكتاب عبارة عن محاورة، إلا أنه فى نهاية المطاف تأليف مشترك.

ويعد ريكاردو مازيو واحدا من المثقفين الإيطاليين المؤثرين بفضل ما قدمه من ترجمات عدة عن الإيطالية وإليها، علاوة على ترجماته عن الإسبانية والفرنسية، وكتاباته المشتركة مع مؤلفين معاصرين، مثل أجنيس هيللر، وإدجار موران. وهو خريج جامعة نابولى، وكان بصدد إعداد أطروحة حول جاك لاكان، وتتلمذ فيما بعد على يد زيجمونت باومان وتأثر به كثيرا.

فيما يعد زيجمونت باومان واحدًا من أكثر المفكرين المعاصرين تأثيرا، وتعد أعماله امتدادا حقيقيا لجهود المدرسة النقدية فى كل من فرانكفورت وبرمنجهام. حيث يصوب سهام نقده صوب النظام الرأسمالى العولمى، وما تخلفه سياساته من ضحايا ومستبعدين، وما يتسبب فيه من تدشين حالة من

---

* Zygmunt Bauman and Riccardo Mazzeo, In Praise of Literature, Cambridge, Polity Press, 2016, pp.1-146.

قام الباحث بترجمة الكتاب وتم نشره عن دار نشر شهريار بالعراق.

عدم اليقين والسيولة. وللمؤلف إسهامات عدة، بداية من محاولته تقديم وصف ورصد لواقعنا المعاصر تحت مفهوم الحداثة السائلة، وانتهاء باهتمامه بقضايا النزعة الاستهلاكية، والدمج الثقافى للمهاجرين، وتأثيرات العولمة والسوق الاستهلاكى على أوضاع الفقراء والمستبعدين. علاوة على ذلك تهتم أعمال باومان بدراسة الثقافة المعاصرة، والسياسات الثقافية وما ترسمه من علاقات بين المبدعين والسوق من ناحية، والمبدعين والسلطة السياسية من ناحية أخرى. ولذلك يعد هذا الكتاب امتدادا لأطروحات المؤلف حول الثقافة وعلاقتها بالمجتمع، مواصلا ومستفيدا من أعمال عالم الاجتماع الألمانى تيودور أدورنو.

ولقد ترجمت أعمال عدة لباومان فى سياقنا العربى، وصدرت أكثرها وقد حملت جميعها معنى السيولة: الحداثة السائلة، الخوف السائل، المراقبة السائلة، الشر السائل، الحب السائل، الأزمنة السائلة، والحياة السائلة. علاوة على أعماله الأخرى التى صدرت عن دور نشر أخرى: الحرية، الحداثة والهولوكوست، والأخلاق فى عصر الحداثة السائلة.

وفى الواقع، يعد هذا الكتاب هو الوحيد ضمن أعمال زيجمونت باومان من حيث اهتمامه فيه بالأعمال الأدبية والفنية، وإن اهتم فى أعمال أخرى بموضوعات ذات صلة مباشرة بعالم الإبداع والفن، وأهمها كتابان: الأول هو كتابه المعنون بـ"فيما يوظف علم الاجتماع"، حيث يخصص جانبا منه للحديث حول علاقة علماء الاجتماع بالأدب، وهو ما يكرره هنا فى كتابه الحالى، وإن كان بشكل أكثر استفاضة هناك. حيث يبين فكرتين أساسيتين: الأولى أن الأدب وعلم الاجتماع حقلان فى حالة تنافس شديد، وفى الآن ذاته كلاهما يكملان بعضهما، ويتبادلان ثمار جهودهما. والفكرة الثانية أن الأدب وعلم الاجتماع بالنسبة للقراء كالشخص الذى يزيل عائقا أمام الرؤية. فالقراء

والمبحوثون يعيشون حياتهم فى حالة عمى أيديولوجى لا يدركون ما يتعرضون له من استغلال مقيت، ولا يـــــرون العالم بوضـوح أكثر، ولكن الأدب وعلم الاجتماع يساعدان فى رفع هذا الستار الذى يخفى حقيقة العالم، ويحول دون رؤية الحقيقة. كذلك يتكرر هذا الاهتمام بالآداب والفنون فى كتابه "الأخلاق فى عصر الحداثة السائلة"، حيث خصص فصلا كاملا، وهو "بين الرمضاء والنار أو الفنون بين الإدارة والأسواق". وفى هذا الفصل، يتناول رؤية تيودور أدورنو حول ما السياسة الثقافية الناجزة، مبينا ما يعانيه المبدعون بين الإدارة، وبين سندان السوق الذى يتطلب الربح دون اهتمام حقيقى بالجماليات والجودة الفنية للمنتج النهائى. فالمبدعون من جهة يقلقون من التخطيط المسبق والخضوع للانضباط والنظام المحكم. ومن جهة، يرفضون خضوع أعمالهم لمتطلبات السوق والربح.

على أنه يمكن استعراض الكتاب الحالى بالنظر فى عدد من الموضوعات المهمة التى يطرحها، وهى على النحو التالى:

أولا: حول علاقة الأدب بعلم الاجتماع

ينطلق المؤلفان من فكرة أساسية وهى أن الأدب وعلم الاجتماع بمثابة الإخوة، كلاهما يعملان بالطريقة نفسها وإن اختلفت الأدوات. حيث يرى باومان أن كلا من الأديب وعالم الاجتماع يقوم بإجراء تفسير ثانوى للواقع. إنهما يقومان بإعادة تفسير الواقع. لذلك هما مطالبان بتتبع العلاقات الخفية التى تقف خلف الظواهر البشرية. كلاهما يواجه نفس المشكلات والإشكاليات والقضايا الملحة، وكلها تتسم بالغموض وإثارة الحيرة والارتباك. علاوة على ذلك فإن محاولات كل من الأديب وعالم الاجتماع الرامية لوضع تفسير وبناء مقترحات للحل، تظل محاولات غير بريئة، لا يمكنها بأى حال الوصول إلى الحياد المطلق المنتظر منها. ولذلك يحاول كل طرف التذرع بحيلة تجنبه الوقوع فى التحيز وإدعاء

الموضوعية. فالآدباء يواصلون الإصرار على أن الجودة الجمالية هى القيمة الوحيدة التى يجب من خلالها الحكم على المنتجات الفنية مهما كانت عواقبها الاجتماعية أو السياسية. بينما الأمثلة العملية تنفى ذلك. ويضرب المؤلف مثلا بواقعة قيام أحد الناشرين بنشر عمل لواحد من الكتاب النازيين، ووقتها ثار السؤال حول حرية النشر، هل تنشر الأعمال لجودتها الفنية على الرغم من أن أصحابها ينشرون أفكارا عانت البشرية من أضرارها الفادحة أم لا؟. فيما يتذرع عالم الاجتماع بحجة أن أسلوب عرض الوقائع والدقة فى اتباع المناهج المعتمدة هو الأجدى. فيما يرى باومان أن هذه الحيلة وتلك محاولة "تساعد الجناة على غسل أيديهم من مسؤوليتهم عن نتائج أفعالهم". عانيا ضرورة أن يتخذ الأديب وعالم الاجتماع موقفا من القضايا الملحة والإشكالية وفقا لما يتاح أمامه من حقائق ومعلومات.

إن كلا من الأديب وعالم الاجتماع مدعوان لمساعدة غيرهم من البشر فى رؤية أحوالهم وصولًا إلى ينابيعها الداخلية والأكثر غموضا التى تستمد قوتها الهائلة من عدم رؤيتها، وذلك للتخلص من فخاخها وكمائنها أثناء البحث عن مخرج أو إدراج معنى وغرض وقيمة على الطريقة التى يعيشون بها حياتهم – وليس أمام عالم الاجتماع والأديب سوى الكلمات. وهما يقومان بذلك عبر طرح الأسئلة وإثارة الشكوك والتساؤلات، مما يجعل القارئ أو المبحوث يقظا ليرى ما لم يكن يتوقع أن يراه فى الواقع الذى يعيشه، يرى ما تغفله عينه ولم يستطع رؤيته ليحترس منه، أو بتعبير باومان نفسه: "إن طرح هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الوجودية الأساسية، وإعادتها إلى جدول الأعمال العام، هى الدعوات التى يتشارك فيها الأدب وعلم الاجتماع. ويعمل السعى وراء هذه الأسئلة على توحيد مساعى عالم الاجتماع والأديب مما يجعلهما متكاملين بالتفاعل الدائم والإلهام المتبادل".

إن عالم الاجتماع، بحسب ريكاردو مازيو، عليه أن يستفيد مما طرحه رايت ميلز بشأن الخيال السوسيولوجي. فهو لا يستطيع التوصل "لجميع الإجابات" على الإنترنت، ثمة واقع عليه أن يعود إليه، بل عليه أن يترجم الكتب النظرية إلى أسئلة واقعية يحاول الإجابة عنها ميدانيا. عليه يبتكر تفسيرا جديدا، لا أن يكون مجرد تقنى مدرب على تنفيذ عمليات محددة، وعليه أن ينتبه لكل ما هو غامض ومربك، وأن يعمل عليها، ليصل إلى الأفكار الأصيلة، ولن يسعفه فى الوصول إلى هذا الخيال الخلاق سوى درب الأدب. الأدب فحسب هو القادر على أن يغذى عقل عالم الاجتماع ويمهد له الطريق نحو التفسير المغاير والمبدع.

وفى هذا الصدد يطرح باومان إشكالية حرية الكاتب فى مقابل حماية المجتمع من الآثار الضارة لما يطرحه الكُتاب. فلقد كان أمرا مفزعا ما أشارت إليه الناقدة الأمريكية المعروفة سوزان سونتاج من احتفاء الأمريكيون بواحدة من أنصار الفكر النازى، والصديقة المدللة لهتلر، وهى الكاتبة لينى ريفنشتال. فقد احتفت بها الصالونات الأدبية والفكرية الأمريكية وأشادت بأعمالها. وما تثيره أعمال هذه الكاتبة يتصادم بحسب باومان مع العقلية الشعبوية الصاعدة التى تشجعها وتؤيدها وسائل الإعلام والأسواق الاستهلاكية.

يرى المؤلف أن حماية المجتمع من خطابات الكراهية التى تحملها كتابات بعض الكتاب هى مسألة أقل شيوعا بالمقارنة بمحاولات منع الكتاب من التصريح بآرائهم. فحرية التعبير تعلو أهميتها. ويضرب مثلا بما تقوم به بعض الشركات من إقامة دعاوى على الأفراد والجماعات المتظاهرين ضد أنشطتها. ولذلك فإن الحماية الفعالة للمجتمع تصبح برأى باومان حلمًا أكثر من أى وقت مضى- بالنظر إلى الوصول السهل وغير المنضبط إلى الساحة العامة التى

توفرها الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات الأساسية المتاحة عالميًا، جنبًا إلى جنب عدم الكشف عن هوية المؤلفين بما يضمن لمستخدميها الإفلات من العقاب. هذا يجعل حماية المجتمع من "خطاب الكراهية"، وانتشاره وتطبيعه، وقبوله العام، وبشاعته، التى غالبا هى بشاعــة مروعـــــة، مسألة صعبــة راهنا، ولها تأثيرات ضارة على الفنون والإبداع.

ثانيا: الخلاص عبر الأدب

حاولت عديد من الدراسات إثبات قدرة الأدب على تقديم حلول عملية للمشكلات التى يواجهها البشر. من بين هذه المحاولات التعامل مع القراءة كوسيلة للاستشفاء من الأمراض النفسية، وآلية لتغيير التصورات والإدراكات المستقرة فى عقل القارئ وتحول دون أن يحيا حياته على النحو الأمثل. وفى هذا المسار يطرح ريكاردو مازيو كيف يقوم تعليم الأدب بدور فعال بالنسبة للفقراء والمهمشين. فالطلاب الذين يطلعون على الأدب يصبحون أكثر شغفا أن يتعلموا أكثر بعدما كانوا فيما مضى يفتقدون هذا الشغف. يضرب ريكاردو أمثلة عدة على هذا الدور الحيوى الذى يقوم به الأدب فى حيوات أطفال يعانون من الفقر والجوع وتفكك أسرهم، وغياب المساندة الاجتماعية التى تمكنهم من مواصلة التعليم والدراسة. كذلك يشير إلى دور المعلم الإيطالى والكاتب إيرالدو أفيناتى الذى حرص على تقديم المساعدة للطلاب الذين يعيشون فى بيئات اجتماعية صعبـــة. إن أفيناتى نفسه كان ابنا ليتيمين أميين (نجت والدته بأعجوبة من معسكر اعتقال وكان والده بائعًا فى الشارع) لذا اكتشف متعة الأدب بمفرده، حيث اشترى كتبًا رخيصة من أكشاك الســوق. وبدأ بقراءة همنجواى، ثم استحوذ عليه تولستوى ودستوفسكى، وساهمت هذه القراءات فى تغيير مسار حياته. لذلك قرر فيما بعد أن يساعد الطلاب المتسربين من التعليم على التعلم، وإكسابهم المهارات اللازمة للتفوق فى دراستهم.القراءة لها دور

تنويرى، إنها تنير دواخل الإنسان، تذكره بماضيه وتجعله يعى ما يدور حوله، يعى ماضيه وحاضره وتحفزه للعمل من أجل المستقبل.

فى المقابل يثنى باومان على الجهود التى يمكن أن يبذلها المعلمون للأدب لانتشال الطلاب المحرومين من حرمانهم ونقلهم عبر الوسيلة الأنجع للحراك الاجتماعى وهى التعليم. ويشير باومـــان إلى هذه القدرات، باعتبارها المهارات والميول التى تشكل فى مجموعها الظروف الضرورية لقيام حياة كريمة ومثمرة: مثل مهارة الحساسية (أن يمتلك الإنسان عيونا وآذانا مفتوحـــة على مصراعى العالم وأصواته، وما يمكن أن يقدمه للآخرين الذين يعيشون معه، وما قد يقدمونه، وما يحتاجون إليه حتى يتمكنوا من الوفاء بوعودهم)؛ ومهارة إعمال الخيال والفكر للتمييز بين الخيارات المتاحة والاختيار من بينها، وكذلك السعى الكاف للإبقاء على هذه الخيارات، والتصرف فيها وفهمها؛ ومهارة التعاطف بالقدرة على الحب، ورعاية الآخريـــن، ومكافحة شرور اللامبالاة، والتحقير، والاعتداء، والتبخيس، والحرمان من الكرامة والإذلال؛ ثم القدرة على التفكير العملى وذلك بتصور نموذج للحياة الجيدة، والعمل على تحقيقه؛ وأخيرا امتلاك مهارة التواصل لمشاركة الحياة مع الآخرين والاستعداد للتفاوض معهم حول أسلوب حياة مرض للطرفين وقبول القيود والتضحيات الذاتية التى قد يتطلبها ذلك. ولكن **باومان** يرى فى الآن ذاته أن المجتمع الاستهلاكى الحالى يقيم من الأسوار العالية التى تحول دون وصول الفقراء إلى نفس الفرص والقدرات التى يحصل عليها غيرهم. بل يعمى الفقراء عن رؤية أهمية اكتسابهم لهذه القدرات والمهارات التى يتعلمونها عبر نظام التعليم والاطلاع على الآداب والفنون، بتوجيه أذهانهم نحو الاستهلاك، واعتباره هى المهمة البشرية الأسمى.

لقد استطاع السوق أن يخترق الحياة الاجتماعية، وأدى إلى نشوء ذوات تعتمد فى أدق تفاصيل حياتها على السوق، فالأعمال التى كانت ذات يوم

حدسية أو عادية– كاتخاذ قرار الزواج، واختيار اسم المولود، وحتى معرفة ما الذى يمكن القيام به– أعمال تتطلب الآن مساعـدة خبـراء مدفوعى الأجر؛ فأصبحت "التجربة الشخصية شيئًا نشتريه.

كذلك يرى زيجمونت باومان أن المسألة تتجاوز قدرة الأدب، أو بالأدق قدرة الثقافة على إحداث تأثير حقيقى فى هذا العالم المتسارع فى خطاه. والأجدى إلى جوار ذلك ويسبقه إجراء تغييرات فى نظام توزيع الفرص والقدرات والمهارات على أفراد المجتمع بحيث يستطيع أبناء المحرومين أن يحققوا آمالهم بيسر.

ثالثا: الأدب وعالم الإنترنت

يهتم الكتاب بما تثيره التحولات التقنية الجديدة من تأثير على واقع الأدب المعاصر. حيث يتبين أن الإنترنت ونشوء المدونات قد قضى على إمكانية الاطلاع بشكل تأملى على الأعمال الأدبية التى تتمتع بالأصالة والاشتغال على اللغة وإعمال العقل والذاكرة والتفكير فى شئون الحياة. فكيف يمكن للقارئ أن يقاوم إغراء الإنترنت الذى يقدم له كافة ما يحتاجه ويواكب أحداث حياته اليومية أولا بأول. فالأدب المعتمد على دور القارئ فى عملية تفسيره، لم يعد هو الأدب المعتمد فى ظل الإنترنت. ينبه المؤلفان إلى المخاطر الناجمة عن ذلك من انتشار قدر عال من السطحية والانصياع غير المبرر لما تمليه الشاشة عليهم. لقد ساعد هذا التحول التقنى على اختفاء دور الوسطاء والنقاد الذين يساعدون القارئ على الانتقاء، فأصبح اليوم ضحية هذا السيل الهائل من المؤلفين دون رقيب أو حسيب.

إن تأثيرات عالم الإنترنت لا تتجسد فحسب فى نشوء لغة ميسرة وسطحية وجاهزة للتلقى، ولا فى غياب حراس البوابات من النقاد والمحررين الذين يستطيعون حماية الحقل الأدبى من المدعين، لكن التأثير يتجاوز ذلك

نحو تحويل الأفراد إلى عبادة الشاشة، أى الخضوع لشاشة الحاسب الآلى أو الهاتف النقال أو أى وسيلة رقمية، خضوعا يجعل الإنسان إذا فقد هذا الجهاز الرقمي أو ذاك وكأنه فقد جزءا منه. لقد استطاعت إحدى الروايات التى أشار إليها الكتاب أن تصف مشاعر بطلة الرواية عندما ضاع منها هاتفها، وكيف أنها كمن فقدت هويتها وأصبحت بلا وجود حقيقى فى الحياة. حيث تروى رواية ليزا جينوفا "ما زالت أليس" قصة "أليس" أستاذ علم النفس اللامعة فى جامعة هارفارد. هذه المرأة كانت لديها ذاكرة مذهلة، وهى قوية جدًا فى القيام بمهام متعددة؛ حيث تميزت بقدرتها على القيام بعدة أمور فى وقت، بل ولديها القدرة على التفكير فى أكثر من شيء دون أن تصيبها الحيرة. ولكنها عند وصولها للخمسين من عمرها أصيبت بشكل سابق لأوانه بمرض الزهايمر. وفى غضون بضعة أشهر، تنهار حياتها بالكامل. بل وأخذت عائلتها تتحدث عن مرضها أمامها كما لو أنها غير موجودة، كما لو كانت شيئًا موضوعا فى الغرفة. وأصبح قيامها بالتحدث أمام الجمهور أمرًا مستحيلاً؛ وتعتمد فى عملها على تعليمات تقوم ببرمجتها على جهازها جهاز بلاك بيرى، لأنها تنسى كل شيء، تمامًا مثل شخصيات رواية "مائة عام من العزلة"، لجابرييل جارسيا ماركيز، الشخصيات التى ضربها طاعــون الأرق (وفقـــدان الذاكـــرة)، وتعتمد على الملاحظات المكتوبة على قصاصات من الورق حتى أنها لم تعد قادرة على فهم ما كتبته. تقرر "أليس" الانتحار عندما يتوقف تأثير العلاج الذي تخضع له، وتقوم أيضًا بإدخال هذه التعليمات فى جهاز البلاك بيرى. ولكن، بعد يوم صعب، يجد زوجها هاتفها الخلوى موضوعا فى الثلاجة، وقد تضرر وتعذر إصلاحه، وهذه هى النهاية حقًا. فقد كان يعني فقدها لجهاز الهاتف فقدها لمنصبها فى جامعة هارفارد، ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى وله بالهاتف نفسه، وله إلى حد الجنون.

وأخيرا يشير المؤلفان إلى مخاطر ما يسميانه بأدب تويتر. يصف ريكاردو مازيو الوضع الاجتماعى الجديد الذى يعيشه القراء فى الراهن. فقد انتشرت ثقافة جديدة، توصف بأنها ثقافة الكاريوكى، وتعني ببساطة أن الأفراد لم يعودوا راغبين في البحث داخل ذواتهم، لم يعودوا يطيقون ذواتهم الحقيقية، ويستطيعون عبر ألعاب الإنترنت وثقافته أن يتحولوا إلى هويات جديدة مغايرة لهوياتهم الحقيقية. يواكب ذلك ظهور نوع أدبى جديد وهو أدب تويتر وروايات الهاتف الخلوى. إنها روايات غير ناضجة، كتبها هواة بلغة مبسطة، وحبكة بدائية، وشكل تقليدى. ومعظم مؤلفات هذا النوع الأدبى من الشابات اللواتى تسربن من المدرسة ومن مستويات تعليمية منخفضة. علاوة على ذلك الأدب، فقد تم تكييف الأعمال الأدبية الكلاسيكية تكييفا يتوافق مع أذواق قراء يعانون نقص الثقافة.

يرى المؤلفان أن أدبا سطحيا من هذا النوع لا يمد علماء الاجتماع بمادة تمكنهم من فهم الواقع الاجتماعى فهما عميقا وحقيقيا. لأنها تزيد إخضاع القراء للوضع القائم، مما يزيد الحجب التى تحيط بعين القارئ فلا يستطيع أن يرى ما هو خفى عليه وبعيد. فى المقابل، يشير الكاتبان لأشكال مختلفة من الأعمال الأدبية القادرة على ترجمة الوضع البشري والنفاذ إلى التجربة الإنسانية العميقة الراهنة. يضرب مازيو مثلا برواية "قانون الكراهية" لألبرتو جارلينى. هذه الرواية التى تصف رحلة شاب عاش فى رفقة أبيه المنتمى للفكر الفاشى، رحلته من الفاشية إلى التسامح. كيف تحول من قاتل إلى شخص متسامح متصالح مع ماضيه.

رابعاً: الأدب والعنصرية

يحاول الكتاب أن يلفت النظر إلى عديد من التجارب الروائية التى تسعى لتفسير الواقع. ومن ذلك محاولة الروائى الإيطالى ألبرتو جارليني تفسير جذور

الفاشية فى روايته "قانون الكراهية". يولد البطل بين والد فاشى وأم تعمل كل الأعمال المتاحة أمامها ولو غير شرعية لإنقاذ أسرتها. ويتعرض للاستغلال من الفاشيين الذين يدفعونه للمشاركة فى عمل إرهابى. إن الرواية تصف علاقة البطل بوالدته، وكيف أن هذه العلاقة المتوترة قد ولدت داخل البطل مشاعر الكراهية تجاه العالم كله. فلم يكن البطل يعى أهمية ما تقوم به من تضحيات، لكنه بعد التجارب التى خاضها، وشعوره بالخديعة والاستغلال الذى تعرض له داخل المنظمة الفاشية التى انتمى إليها، ودخوله فى علاقات إنسانية جعلته يدرك جيدا حجم التضحيات التى قامت بها أمه فى حياتها لإنقاذه من الجوع والفقر. هنا يتصالح البطل مع ماضيه، ويتسامح من جديد مع العالم.

بيد أن باومان لا يكتفى بإبراز الدور الحيوى للرواية فى تمثيل التعصب وشخصياته العنيفة، وتأصيل ذلك فى ضوء علاقة الشخصية بالأبوين، لكنه يوسع مدى تحليله ليعود لمفهوم أساسى فى فكره وهو الشخصية ذات المصادر الخارجية. حيث يقول إن الشخصيات الفاشية هى شخصيات لا شكل لها وناعمة وسيالة ورخوة وغير نظيفة لما تقترفه من أفعال وأضاليل. إنها تميل إلى الاستعانة "بمصادر خارجية"، لتصنع حول نفسها دروعا تحميها من تأنيب الضمير. هذا الوصف الذى يقدمه باومان يتطابق مع وصفه للشخصيات المعاصرة وليدة عصر السوق. فهى الأخرى تعيش على الاستعانة بالموارد الخارجية الجاهزة، على قوالب معرفية يقدمها الخبراء، ويتم تنفيذها دون تفكير. وكأنه يشير من طرف خفى إلى العلاقة بين تطورات الأوضاع الراهنة ونشوء التطرف والعنصرية، ورفض الأجانب فى الغرب.

وفى المسار نفسه، يشير الكتاب إلى ما تقوم به الرواية من وصف أشكال التناظر بين الحركات السياسية العنصرية، الحركات التى تبنت الإرهاب والتعصب وسيلة لها.وهكذا يناظر أحد شخصيات رواية جوناثان ليتل "الطيبون"

ما بين الحركة النازيـــة الألمانيـــة (الاشتراكية القومية) والحركة الصهيونيـــة، فكلاهما يتخذ أساسا لها: العرق والدين، بل وتقول الشخصية إن المفاهيم كافة النازية مشتقة من الحركة الصهيونية: مفهوم الأرض الموعودة والكاملة، ومفهوم الشعب المختار من بين كل الشعوب، ومفهوم نقاء الدم.

خامسا: لغوية العالم الاجتماعى

إن لغوية العالم الاجتماعى مسألة فى غاية الأهمية. ذلك معناه الانتقال من دراسة البنية الاجتماعية إلى دراسة التمثيلات والتصورات الاجتماعية، من دراسة البنية لدراسة الخطاب. فنحن البشر نفكر من خلال اللغة، ونعيش من خلالها، ونتصرف وفقا لها. يعبر باومان عن هذا المعنى بحديثه عن الخطاب ودوره فى الحياة الاجتماعية. يقول إن كل ما نفكر فيه ونعتقد به ونتصرف من خلاله، هو فى نهاية المطاف من صنع الخطاب. أو بتعبير أحد الروائيين "نحن نعيش فى الخطاب كسمكة تعيش فى المياه". فنحن نتصرف في حياتنا اليومية، وخلف تصرفاتنا توجد خطابات تتحكم فى ذلك، خطابات نصنعها، وتصنعنا. إن أنظمة القانون تحتوى على خطاب يشملها. وتحتوى الدبلوماسية على خطاب، وكذلك معتقدات أديان العالم العظمى. كما أضحى الخطاب يهيمن على عالم وسائط الاتصال المتعددة والأدبية المتزايدة– الراديو والتلفاز والإنترنت والإعلان، والطرود البريدية، والكتب، والمجلات، والجرائد، بل وهيمن على الأبعاد غير اللفظية من حياتنا.

هذا الفهم للعالم الاجتماعى باعتباره صنيع اللغة، وليد الخطابات المتنوعة التي تحيط بنا، وتؤثر فى سلوكياتنا وتصوراتنا وردود أفعالنا على ما يحدث من حولنا، هو ما يقـــود إلى الحديث عن الاستعـــارات الحاكمـــة لحياتنا اليومية. يرى باومان أن هناك استعارة كبرى تحكم كل فترة تاريخية. فلقد كانت استعارة الاستعارات فى القرن التاسع عشر والعشرين هى "استعارة بيجماليون"،

بجماليون الذى وقع فى حب التمثال جالاتيا، فى هوى مخلوق من صنع يده أتمه بفضل مهاراته فى التصميم والأداء. فطغت على بجماليون مشاعر الرهبة والذهول والإعجاب، وأخذ يتعبد بمرأى كمال قواه الإبداعية. فمثّل تمثال جالاتيا رمزا لما يمكن أن يفعله البشر– أو على الأقل الفنانون العظماء. إنها دالة على قدرة الإنسان على جعل العالم مرنًا ومطيعا لأحلامه وتصوراته بالإرادة والدراية. ففى هذين القرنين وصلت مغامرة البشر التاريخية فى إدارة الكون إلى ذروتها.

فيما تمثل استعارة "نرجس" الاستعارة الكبرى في عصرنا الحالى. إنها استعارة الفرد المحتفى بذاته. إنها استعارة تكتنز ثلاث استعارات أساسية تحدث عنها الكتاب استنادا إلى أحد البلاغيين الإيطاليين، وهو ستيفانو تانى. الاستعارة الأولى هى استعارة الشاشة. وهى تدور حول دور شاشة الحاسب الآلي (أو الجهاز اللوحي أو الآيفون) فى حياتنا، وكيف أن الإنسان المعاصر أصبح أسيرا لها، يترك عائلته، ويظل أمامها، منقطعا عن التواصل الحقيقي اليومى مع الآخرين. يقول باومان إن هذه الشاشة هى ذات الإنسان نفسه، حيث يظل الإنسان أمامها أسيرا لنفسه، منعزلا عن الآخرين، غير راغب فى التواصل معهم، لأنه يشعر بالأمان مع ذاته، فيما العالم المحيط به يوصف بالوحشية والعدوان. ولعل أبلغ تعبير سلوكى عن ذلك هو التقاط الصور الذاتية، أو ما يعرف بالسيلفى. والاستعارة الثانية هى استعارة "مريض الزهايمر". فالإنسان المعاصر محاصر بتدفق هائل من المعلومات، وسيل دافق من المطالب والاحتياجات والسلع التى تتكاثر يوما بعد يوم ولا يستطيع شراءها وتلبيتها، رغم جوعه لها. وإزاء ذلك لا يجد الجسد من حل سوى القيام بتفريغ ذاتى لهذه المعلومات والمطالب اليومية، بحيث يصبح الإنسان فاقدا لذاكرته، يصبح الإنسان فاقدا لما يربطه بالآخرين، ما يجعله متواصلا مع الماضى، ويربطه فقط بحاضره، بذاته هو فقط. أما الاستعارة الثالثة، التى تمثل الضلع

الثالث لاستعارة نرجس، فهى استعارة الزومبى. أى استعارة المستهلك، المنهمك في البحث عن السلع، ولكنه فى نهاية المطاف لا يجد سوى أن يستهلك نفسه. ينقل باومان مقتبسا معبرا عن هذه الاستعارة: إن متطلبات اقتصادنا الإنتاجى الهائل تتمثل فى أن نجعل الاستهلاك طريقة حياتنا، وأن نحول شراء واستخدام السلع إلى طقـــوس، وأن نسعى إلى إشباعنا الروحـــى، وإشبـاع الأنـا، فى الاستهلاك. إذ تعتبر أنماط الاستهلاك هى مقياس الوضع الاجتماعى، والقبول الاجتماعى، والهيبة. ويتم التعبير عن معنى حياتنا وأهميتها اليوم بعبارات استهلاكية. وكلما زادت الضغوط على الفـــرد للامتثال للمعاييـــر الاجتماعية الآمنة والمقبولة، غدا أميل للتعبير عن تطلعاته وشخصيته فيما يرتديه، ويقوده، ويأكله، من خلال منزله وسيارته وأسلوبه فى تقديم الطعام، وهواياته".

إن ولادة هذه الاستعارة؛ استعارة نرجس، الفـرد المولع بذاته، هى نتاج طبيعى لشـرط اجتماعى أساس، وهو انهيار الأسـرة الأبويـة. يورد باومان تأكيدا لذلك عبر عدد من البيانات الإحصائية الدالـة على تحول نظام الأسرة فى العالم الغربى، أو فى أمريكا على وجه الخصوص. فقد وصلت النسبـة المئوية للأطفال المولودين لأمهات عازبات (فى الولايات المتحدة) إلى ٤٠٪ بحلول عام ٢٠١١، وكشفت الدراسات أن نصف الأطفال الأمريكيين أمضوا جزءًا على الأقل من حياتهم فى أسر من عائل واحد. كذلك ارتفعت نسب الطلاق ارتفاعا ملحوظا. فقد بلغت عام ١٩٠٠ ١٠٪ من الزيجات، بينما بلغت اليوم نسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ و٥٠٪ بالنسبة للزيجات الأولى"، فى حين أن الزيجات الثانية والثالثة أكثر تواترًا وحدوثًا على نحو سريع. هذه المؤشرات الإحصائية تشير بطرف خفى لانهيار نظام الأسرة التقليدى، أصل الجماعية، وغياب لدور الأب الذى أطال الكتاب فى وصف هذا الغياب، انطلاقا من

مفهوم "تبخر الأب" الذى طرحه المحلل النفسى جاك لاكان فى واحد من أعماله.

يبقى فى الأخير أن هذا الكتاب يمثل إضافة حقيقية من عدة نواح. فهو يحيطنا علما بأحدث ما قدمه علماء الاجتماع بشأن رؤيتهم لدور الأدب وأهميته فى رؤية العالم الاجتماعى، وكذلك النظر فى التحولات الكبرى التي يدور فى فلكها العالم المعاصر، من تحولات طالت المفاهيم الأساسية للعالم الحديث، مفاهيم الدولة القومية، والأسرة التقليدية، والثقافة، والاجتماع الإنسانى، مع الانتقال من الدولة القومية إلى العولمة ونشوء نظام عالمى جديد، والتحول من الأسرة التقليدية، إلى أشكال متنوعة من أشكال العائلة، وتغير مشاعر الأفراد تجاه بعضهم البعض، وغلبة السوق على الحياة العامة ودخوله لأدق التفاصيل المعيشية للناس، وانتشار واسع للتقنية الرقمية وعزلها للإنسان عن علاقات التفاعل اليومية الأصيلة واستبدالها بعلاقات عابرة وسطحية، وتحول من الأدب والفنون القائمة على جودة العمل الفنى وتأثير الوسطاء الفنيين إلى أدب يحتفى بالعنف وكل ما سطحى وتافه وردئ وما يجذب عين شرائح واسعة من القراء من أصحاب الذائقة المتواضعة، أى الانتقال إلى أدب محكوم بمنطق السوق.